جورج شحاده

شاعر الحنين الى الفردوس المفقود

بقلم صباح محيي الدين

•

من اجمل ما خلفته حلب من ذكريات في نفسي ، زيارة الى احد تجـــار السجاد فيها . واذكر اني كنت آنذاك في حمّى المراهقة ، اجتاز تلك السن التي يكون فيها الحس أرهف ما يكون ، وتدق فيها المشاعر حتى كأن النفس وتر مشدود يطن لهفيف كل ريح عابرة ، وتنفتح فيها الروح على العـالم الخارجي وهي لم تنفلت بعد من احلام اليقظة ومن هواجس العـــالم الداخلي. وتلك السن برزخ بين الطفولة والرجولة، تضطرب بين براءة الاولى واحاسيسها وبين ما تخبئه الثانية من واقع يومي لا يؤمن بالاحلام ولا يشفق على الرؤى ، الشوق يحملنا الى آفاق الرجولة ويمسكنا الحنين الى فراديس الطفولة .

وان هذه الاويقات الثمينة وامثالها قد استقرت في اعماق نفسي كواحات نيرة مونقة اعود اليها بين الحين والحين لاستجم من وعثاء الحياة واستريح من تعبها .

وها انا — إذ اخط هذه السطوز — تطالعني من جديد تلك الساعة الطويلة التي قضيتها في مخزن السجاد، وقد سمّرت ناظري على ما يعرضه التاجر علي منها ، فأرى في ذلك المجـــال الضيق الذي لا يعدو الاقدام المربعة القليلة حدائق ذات ازهـــار لا مثيل لها بين حدائق عالمنا الارضي ، وطيوراً تنبض بالألوان التي تفوق الحياة في بهائها وتكاد تصدح بالغناء ، وتخيـل نفسي اعيش في ذلك العالم السحري الذي يربو على الواقع حقيقـــة ، وهو بعد ألصق بقلبي وأحب اليه .

وقد ساقتني خطاي منذ ايام قليـــلة الى متحف « غاليرا » Galliéra في باريس ، حيث اقيم معرض للسجاد الشرقي ، جمـع بين نتاج آسيا الوسطى وتركيا وايران وسوريا ، لوحات حية من النسيج تفوق بصفائها ورونقها لوحات المصورين وتزاويقهم.

وامام هذه السجاجيد شعرت كأن شيئاً قد انطلق في نفسي وحملني خارجَ الزمان والمكان، فعدت الى الوراء سنين ودافعتني الذكريات حتى ملأت علي جوانحي ولم تترك مكاناً لسواهـا . ووجدتني احدّق في سجادة تركية واستعيد بعض الشعر التركي القديم الذي يتحدث عن جمال الزهور وعذوبة الينابيـع وحلاوة الطفولة ، وبعض اشعار عمر الخيام ، فتأتي مكملة لما تجيش بـه نفسي من المشاعر . وكالنار تنتشر من الاقرب الى الابعـــد اخذت اترنم ببعض ابيـــات علقت بذهني من شعر « جورج شحادة » :

رب جنينات لم يعد لها دار — Il y a des jardins qui n'ont plus de pays

وحيدة مع الماء — Et qui sont seuls avec l'eau

تجوزها حمائم ، زرق ، ما لها اعشاش — Des colombes les traversent bleues, et sans nids

وعدت فجأة الى ذاتي اسألها عما جعلني اضع « شحادة » هذا الموضع ، بين الشعر التركي والخيام وهذه الحدائق النيرة من السجاجيد . وما عتمت ان ادركت ما كان فكري الباطن قد عقله منذ اول وهلة . فاني — منذ قرأت ديوان جورج شحادة — وانا احاول ان اجد له صحبة لائقة في مـا اعرف واحب لكي اضعه بين اقرانه . وقد باءت محاولاتي بالفشل حتى تلك الزيارة الى معرض السجاد .

هذا إذن هو شعر جورج شحادة ، سجادة تحوي في نطاقها الصغير جمال الحدائق وروعتها ، وهذا هو عالمه الشعري ، عالم ضيّق ضيق السجاد او ضيق الحدائق المغلقة في اروقة الاديرة او في البيوت القديمة التي آنست طفولتنا ، حيث لا ترى العين سوى سروة او دفلى وشجيرات من الورد او الياسمين وفسقية يتفجر منها الماء في سير رقيق . وهذه الحدائق على صغرها بحر ليس له ساحل للمتأمل، يتركز الفكر في نطاقها فيذهب الى لب الاشياء وجوهرها ، ولا يتبعثر امام الآفاق الواسعة التي يضيع فيها الفكر ويذوب التأمل .

ظهرت مؤخراً في باريس مجموعـــة شعرية للشاعر اللبناني (باللغة الفرنسية) الاستاذ جورج شحاده بعنوان « الأشعـار » Les Poésies . وهي تضمّ كل ما نظمه الشاعر منـــذ عام ١٩٣٨ حتى الآن وتشتمل على اربعة دواوين ، الثلاثـة الاولى منها تحمل اسم « اشعار » (١، ٢، ٣) والرابع بعنوان : « اذا كنت تعرف يمامة » Si Tu Connais un Ramier . وقد استقبلت هذه المجموعة باعجاب اجمع عليه النقاد الفرنسيون على اختلافهم .

وفي هذا المقال يعطينا الكاتب صورةً عن جوّ شحاده الشعري .

ان شعر شحادة حديقة ضيقة ، ولكنّ فيها للناظر زاداً لا يفنى وفي شجيراتها وغدرانها الرقيقة رقة انامل الاطفال، مفاتيح لعوالم الطفولة والبراءة . وخير وسيلة لدخول هذه الحديقة ، ان نتجرد مما علمتنا اياه السنون ونعود الى ايامنا الاولى ، حين كنا نؤمن بالأساطير والخرافات .

وقد قال احد النقاد في شعرشحاده انه « حنين الى البراءة»، براءة الطفولة الاولى ونقائها . وهذا صحيح يبدو للقارىء لاول وهلة ، في انتقاء الصور واختيار الكلمات .

وجورج شحادة يدور في هذا الفلك الصغير العميق معاً ، مما يؤدي به الى الاقلال، فلا يخرج عن صمته الا نادراً ، حين تدك الرؤى اسوار السكوت وتنطلق من عقالها لتستقر على الصفحة البكر ، كما ان بعض الكلمات والصور ذاتها تكاد تتردد في كل قصيدة من قصائده القصيرة كاللحن الاساسي في السنفونية ، وتتعانق كما تتشابك خيوط النسيج تفتلها اصابع الصانع وتوجهها في رفق وتؤدة فتحيك منها الاثر الرائع . وهكذا شحادة متعلق بالكلمات التالية كأنها تعاويذ سحرية ما يكاد يتلفظ بها حتى يخلق منها عالمه الفريد :

الورد ، الطفولة ، الزهر ، الياسمين ، الاوراق ، الشجر ، الغابة ، العصفور ، اليمامة ، الحمام ، النجم ، البستان ، الرؤيا ، الماء ، البحيرة ، البحر ، النبع . . .

وهذه كلمات تفيض شاعرية بدائية قد ذهبت برونقها كثرة الاستعمال ومر الايام ، ولكن شحادة بفنه ونَفَسِه — يشيد منها دنيا شعرية تأخذ بالقلب ، ويعيد الى هذه الالفاظ الحائلة رونقها الاصلي ، ايام تمتم الانسان بالشعر اول ما تمتم .

وهنا أود ان اعترف باني قرأت ديوان جورج شحادة اكثر من مرة . ففي المرة الاولى وجدتني كالناظر من خلف نافذة زجاجية غشاها المطر ، فلم أر الا معالم غامضة وصوراً بعيدة . ولكني لم أيأس (انظر قصة القرد والجوزة في« كليلة ودمنة ») وعدت الى الديوان مرة بعد مرة ، فتفتحت امام ناظري عوالم من السحر والجمال . وكذلك الأثر الفني الحق غني بالمفاجآت ، يعطيك من فيضه كلما وردته دون ان ينضب له معين ، ولا تزيدك صعوبة اول لقاء معه الا رغبة في اكتناه اسراره .

فالشعر على شكلين ، شعر يأتي اليك دون عناء فيعقله دماغك قبل ان يستقر في فؤادك ويتلذذ به حسك ، وهذا هو الشعر السائر ، وهو في متناول كل ناظم ولا يتطلب كبيرجهد من الكاتب ولا من القارىء . وشعر آخر يتصدى لك من بعيد ، فلا ترى منه الا لمحات تشوقك وتثير ظمأك اليه . فاذا انت رغبت في ان تكشف النقاب عنه ، وجب ان تسعى اليه وتبذل في ذلك جهداً غير قليل — جهد الباحث عن الذهب او الماس في جوف الارض — حتى يتفتح لك ما استغلق عليك منه . وما اعظمها متعة حين ذاك ، ويا ماءاه ويا ظلاه ، ويا واحة القلب الصادي !

وهذا هو شعر « جورج شحادة » ، لا يتفلسف ولا يسعى الى الملاحم ، بل يسيل من الروح الى الروح ، وليس ذلك دون جهد ، اذ دون ائتلاف الارواح سدود من العادات واسوار من الاساليب الموروثة في التفكير والنقد .

وهذا الشعر من النوع الذي لا يعطي الا بقدر ما يَأخُذ ، فهو شعر تحابّ ومشاركة ، لا ينفتح الا على المقبل عليه بكل نفسه وحواسه ، ويكاد يستوي فيه حظ القارىء والشاعر في الخلق والابداع ، وينطبق عليه قول باسكال في الباحث عن المسيح « ما كنت لتبحث عني لو لم تكن قد وجدتني » . فالمسألة اذن مسألة شاعرية القارىء ، وقابليته على المساهمة في ان ينفخ من روحه فيما كتبه الشاعر ويساهم في اخراجه الى حيز الوجود . ولذا يخيل لبعض الافكار البليدة الغافية على مفاهيم مبسطة للشعر والشاعرية وللذين يتلقون غذاءهم الروحي ممضوغاً او نصف مهضوم ، ان هذا النوع من الشعر مغلق غامض .

والواقع ان هذا الشعر أسهل ما يكون منالا لمن يفتح عليه عينين من السذاجة والبراءة ويأتيه بقلب طهور . فهو ينفصل عن الواقع البحت — وهنا يضيع زبائن الشعر التقليدي—

مكتبة المعارف في بيروت
ساحة النجمة - شارع المتنبي
تلفون ٩٥ - ٦٧ بيروت

هي اول ما يفكر به الاديب
عند فراغ جعبته وعند نفاد مكتبته
من كتاب يقرأه

اتصالات مع جميع الاقطار العربية

مختارات من شعر شحادة

رب جنينات لم يعد لها دار	Il y a des Jardins qui n'ont plus de pays
وحيدة مع الماء	Et qui sont seuls avec l'eau
تجوزها حمائم ، زرق ، ما لها اعشاش	Des colombes les traversent bleues et sans nids
ولكن القمر زجاجة من الهناءة	Mais la lune est un cristal de bonheur
والطفل يستعيد ذكرى فوضى كبيرة صافية	Et l'enfant se souvient d'un grand désordre clair

---

سترجع النجمة على البستان الخرب	L'étoile reviendra sur le jardin détruit
كأنها نقطة ماء الولادات	Pareille à la goutte d'eau des naissances
وتتفتح الطيور التي فرغ صبرها	Les oiseaux s'ouvriront qui n'ont plus de patience
ولتكونن ـ عندها ـ رؤيا الليلة الاولى	Et ce sera le songe de la première nuit

يا حبيبي انا في مرج	A mon amour je suis dans une prairie
مع اشجار في مثل سني	Avec des arbres de mon âge
ولكن غزلاناً تمر في الجفون الوسنى	Mais des gazelles passent dans les cils endormis
والمنيّة، هذه الامسية ، هي ابنة الزمان الحبيب	Ce soir la mort est la fille du Temps bien-aimé

في هذه البرية حيث تموت الشمس	Dans cette campagne où le soleil meurt
كما يعب جواد	Comme un cheval boit
يحمل العشب والزمن ذات الالم	L'herbe et le temps ont la même peine
وتزيح كمنجة ظلالاً بيدها	Un violon chasse des ombres de sa main.
تذكر مستنقعات البحر البعيد	Rappelle-toi les étangs de la mer lointaine
حين تتوسّد ارض الاطفال	Quand tu dormiras dans la terre des enfants

ويبصر أبعد من الواقع اذ يرى ما يحيط بالاشياء من هالة مثقلة بمختلف الممكنات الفريدة . والشاعر هنا ـ والقاريء ايضاً ـ كالطفل يشيد بخياله قصوراً بما بين يديه من قصاصات وقلامات، ويرى في السحاب مدناً اسطورية سقوفها من ذهب وشوارعها من زمرد ومرجان ، ويجعل من القصبة الجوفاء جواداً ينطلق على صهوته نحو العوالم المرئية وغير المرئية .

فهذا اذن شعر صعب المنال على الذين يفضلون ما سهل من مسالك الشعر والفكر ، ويترددون امام السبل الوعرة وان كانت تنفتح على آفاق عذراء لم تفتضّها عين من قبل .

ومن يرغب في السهولة فلديه لامارتين وامثاله ، يسيل شعرهم كالنهر امام الناظر ويغيب عن عينيه في اول منعرج يلاقيه . اما هذا الشعر الذي نحن في صدده ، شعر جورج شحادة وقرنائه امثال هنري ميشو ورنيه شار وسان جون برس . . . فيتفجر من اعماق القاريء الذي اسبغت عليه آلهة الشعر نعمة التناغم الشعري ، ويهف كأريج الزهر يحمله النسيم الآتي من بعيد ، فما يتنسمه المرء حتى يرى رأي العين حدائق غناء ، وياسميناً وورود واشجاراً مزهرة من البرتقال ، او هو كالنغم الشريد يطرق السمع فيرجع صداه في طيات الذكرى ومعارج الخيال ، وينتصب حوله عالم من السحر الموسيقي البديع .

*

وقد يتساءل القاريء الى اية مدرسة شعرية ينتسب جورج شحاده ؟ وانا من الذين يقولون بسخافة هذه الاصطلاحات التي تقسم الادب والشعر الى مدارس واساليب ، كأنّ انتاج الفكر بصل وفجل او دجاج وبقر . ولكن ذلك يسهل على النقاد مهمتهم ، وعلى القراء فهمهم ، اذ يخيل لهم انهم يصبحون اقرب الى الشاعر او الكاتب اذا صنفوه بين الابداعيين او التأثريين او غيرهم .

والمتعارف عليه بين اكثر النقاد اليوم ان جورج شحاده من اتباع المدرسة السريالية Surréaliste وهكذا قال شيخ السرياليين وزعيمهم اندره برتون André Breton حين مثلت مسرحية شحاده « السيد بوبل » في العام الفائت ودعمه في ذلك رؤوس السرياليين مثل رينه شار René Char وبنجمان بيريه Benjamin Péret وهنري بيشيت Henri Pichette . ولهذه المسرحية قصة طويلة ، فقد اشعلت حرباً كلامية بين انصار الشعر الكلاسيكي والمؤمنين بالشعر الحديث على صفحات الجرائد الفرنسية . وقد رأى الآخرون في مسرحية جورج شحاده « أثراً ذا جمال خارق » .

وقد ظهرت في باريس اخيراً مجموعتان من الشعر الفرنسي الحديث ، تبوأ فيهما جورج شحاده مكانه بين كبار الشعراء المعاصرين من هنري ميشو Henri Michaux الى بول ايلوار Paul Eluard واندره برتون André Breton ...

ومهما تكن المدرسة التي قد تطالب بجورج شحاده ، فانه ينطق بلسان الشاعرية الصرفة ، لسان الذين لا تسعهم مدرسة ولا يعترفون بالهة سوى ربة الشعر .

«باريس» صباح محيي الدين